الإمام

الليث بن سعد

- قال عنه الشافعى أنه أفقه من مالك!

- عندما هدموا منزله .. أصيب الأمير بالفالج.!

الليث بن سعد

الليث بن سعد هو أحد أعلام الفقه التى أنجبتهم مصر. . فقد كان محدثاً جليلاً، وفقيهاً متعمقاً فى الفقه، حتى أن الإمام الشافعى قال عنه:

«كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه».

وقد ربطت بين الليث بن سعد والإمام مالك صداقة امتدت طويلاً، رغم اختلافه مع الإمام مالك فى بعض الأمور الفقهية، وكان أيضاً يصل الإمام مالك ببعض المال لأن الإمام الليث بن سعد كان شديد ء، ورغم اختلافهما فى بعض الأمور الفقهية، فإن هذا الاختلاف لم يفسد الود بينهما . . وقد توثقت هذه العلاقة عندما تعرف عليه الإمام الليث عند زيارته الأراضى الحجازية للحج، وأعجب كل واحد منهما بالآخر.

وقد ولد الليث بن سعد فى قرية قلقشندة بالقرب من طوخ الحالية فى محافظة القليوبية سنة ٩٤هـ فهو مصرى المولد من أصل عربى.

قال يحيى بن بكير:

- ما رأيت أحداً أكمل من الليث، كان فقيه النفس، عربى اللسان، يحسن القرآن النحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة.

وقد مات يوم الجمعة رابع عشر شعبان سنة ١٧٥هـ ، وما بين يوم ميلاده ويوم موته تاريخ حافل بالعطاء والثقافة الرفيعة، والأخلاق الراقية، والكرم والسخاء الذى تحلى به هذا الإمام الجليل.

فرغم ثرائه الكبير . . كان كثير العطاء للناس، محباً للفقراء والمساكين، يعطف على ذوى الحاجة من الناس حتى قيل أنه لم يخرج الزكاة قط، لأن أمواله كان

يوزعها على مدى العام على كل من يحتاج إلى هذا المال، فلا يبقى النصاب الذى يوجب عليه الزكاة!

ومع كل ما كان يتمتع به من علم وفقه، ورغم أنه كان كما قلنا كثير العطاء.. أحبه الناس لسخائه.. ولعلمه.. ولكرمه.. ولحبه للعطاء.. فلم ينج من محنة ألمت به على يد أمير مصر الوليد بن رفاعة، رغم قرابته له، لأن كلاهما - كما يقول الرواة - ينتمى إلى العدنانية.

فقد حقد عليه هذا أمير بلا مبرر، وهدم داره بقلشندة!

فما كان من الليث بن سعد أن عاد فبنى هذه الدار لأنه كان يحب أن يذهب إلى مهبط رأسه بين الحين والحين، ولكن الأمير هدمها للمرة الثانية، وعندما بناها الليث للمرة الثانية، هدمها هذا الأمير، مما جعل الإمام الليث بن سعد يشعر بالحزن الشديد، والألم من هذا الاضطهاد والذى ليس له ما يبرره سوى العناد، وسوى أن هذا الحاكم المتسلط يريد أن يغيظه ويكيد له.. ولكن هذا الحزن العميق الذى كان يشعر به هذا الإمام سرعان ما ذهب عندما رأى فى منامه من يقول له: يا ليث ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾[القصص].

وتروى الكتب التى تحدثت عن الإمام الليث بن سعد أن هذا أمير قد أصيب بالفالج، ومات بعد ذلك، وقد ندم على ما اقترف فى حق هذا الرجل الذى لم يقم بإيذاء أحد، وليس هناك مبرر لما فعله به.

وكان الليث فى الرابعة والعشرين من عمره.

بل أن هذا أمير كتب عندما مرض وصيه.. أو كما يقول يحيى بن بكير:

« كتب الوليد بن رفاعة وهو أمير مصر فى وصيته، قد أسندت وصيتى لعبدالرحمن بن خالد بن مسافر إلى الليث بن سعد، وليس لعبد الرحمن أن يفتأت على الليث فإن له نصحا ورأياً».

والذين تحدثوا عن الإمام الليث بن سعد تحدثوا عن ذكائه وفقهه وعلمه الغزير منذ أن اتجه إلى العلم والفقه. . فبعد أن حفظ القرآن الكريم، ودرس علوم الدين، عن كبار رجال عصره، كما أخذ عن نافع مولى ابن عمر وروى عنه أنه عندما دخل على نافع سأله:

- من أين ؟

- من أهل مصر.

- ممن؟

- من قيس

- ابن كم؟

- ابن عشرين.

- أما لحيتك فلحية ابن أربعين.

ومن البلاد التى زارها الإمام الليث العراق، وزيارته للعراق تستدعى سرد بعض الأحداث التى تدل على ذكاء الإمام الليث يوردها الدكتور أحمد عمر هاشم فى دراسته عن الليث بن سعد ، فيقول:

وفيما يتعلق برحلته إلى العراق نحب أن نذكر حادثتين نترك أمر التصديق بهما إلى القارئ، ونذكر أن الأسباب التى دعتنا إلى ذكرهما هى:

١ - طرافة هاتين القصتين.

٢ - المشكلة فيهما فى غاية التعقيد، وقد استعصت على كثير من الفقهاء.

٣ - الحل فيهما فى غاية التعقيد، وقد استعصت على كثير من الفقهاء.

٤ - كل الكتب التى كتبت عن الليث والتى بين أيدينا ذكرتهما. . وسواء أصحت القصتان أم كانتا خيالا فإن فيهما طرافة.

وها هى القصة الأولى ننقلها عن الحلية:

عن أبى على الحسن بن مليج الطرائفى بمصر . . حدثنا لؤلؤ الخادم - خادم الرشيد - قال:

جرى بين هارون الرشيد وبين ابنة عمه زبيدة مناظرة وملاحاة فى شىء من الأشياء، فقال هارون لها فى عرض كلامه: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم ندم واغتما جميعاً بهذا اليمين، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عمه منه، وجمع الفقهاء وسألهم عن هذا اليمين فلم يجد منه مخرجا ، ثم كتب إلى سائر البلدان من عماله أن يحمل إليه الفقهاء من بلدانهم، فلما اجتمعوا جلس لهم وأدخلوا عليه، وكنت واقفاً بين يديه لأمر إن حدث يأمرنى بما شاء، فسألهم عن يمينه وكنت المعبر عنه، وهل له منها مخلص فأجابه الفقهاء بأجوبة مختلفة، وكان إذ ذاك فيهم الليث ابن سعد فيمن أشخص من مصر، وهو جالس فى آخر المجلس لم يتكلم بشىء، وهارون يراعى الفقهاء واحدا واحدا.

فقال له : بقى ذلك الشيخ فى آخر المجلس لم يتكلم بشىء، فقلت له إن أمير المؤمنين يقول لك:

- مالك لا تتكلم كما تكلم أصحابك؟

فقال:

- قد سمع أمير المؤمنين قول الفقهاء وفيه مقنع ، فقال: قل إن أمير المؤمنين يقول: لو أردنا من ذلك سمعنا من فقهائنا، ولم نشخصكم من بلدانكم ، ولما أحضرت هذا المجلس؟

فقال: يخلى أمير المؤمنين مجلسه إن أراد أن يسمع كلامى فى ذلك؟

فانصرف من كان بمجلس أمير المؤمنين من الفقهاء والناس ثم قال: تكلم

فقال: يدنينى أمير المؤمنين.

فقال: ليس بالحضرة إلا هذا الغلام، وليس عليك منه عين.

فقال: يا أمير المؤمنين أتكلم على الأمان وعلى طرح للتعمل والهيبة والطاعة لى من أمير المؤمنين فى جميع ما آمر به؟

قال: لك ذلك.

قال: يدعو أمير المؤمنين بمصحف جامع، فأمر به فأحضر.

فقال: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفحه حتى يصل إلى سورة الرحمن، فأخذه وتصفحه حتى وصل إلى سورة الرحمن.

فقال: يقرأ أمير المؤمنين، فقرأ، فلما بلغ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ قال: قف يا أمير المؤمنين ههنا.. فوقف، فقال: يقول أمير المؤمنين، والله، فاشتد على الرشيد وَعلّىَ ذلك..

فقال له هارون: ما هذا؟

قال: يا أمير المؤمنين، على هذا وقع الشرط، فنكس أمير المؤمنين رأسه، وكانت زبيدة فى بيت مسبل عليه ستر قريب من المجلس تسمع الخطاب - ثم رفع هارون رأسه فقال: والله، قال: الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إلى أن بلغ آخر اليمين، ثم قال: إنك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله.

قال هارون: إنى أخاف مقام الله.

فقال: يا أمير المؤمنين، فهى جنتان وليس بجنة واحدة كما ذكر الله تعالى فى كتابه. فسمعت التصفيق والفرح من خلف الستر.

وقال هارون: أحسنت والله بارك الله فيك. ثم أمر بالجوائز والخلع لليث بن سعد.

ثم قال هارون: يا شيخ اختر ما شئت وسل ما شئت تجب فيه.

فقال: يا أمير المؤمنين، وهذا الخادم الواقف على رأسك.

فقال: وهذا الخادم.

فقال: يا أمير المؤمنين والضياع التى لك بمصر ولابنة عمك أكون عليها وتسلم إلى لأنظر فى أمورها.

فقال: بل نقطعك إقطاعاً.

فقال: يا أمير المؤمنين ما أريد من هذا شيئاً بل تكون فى يدى لأمير المؤمنين فلا يجرى علىَّ حيف العمال وأعز بذلك.

فقال: لك ذلك.. وأمر أن يكتب له ويسجل بما قال، وخرج من بين يدى أمير المؤمنين بجميع الجوائز والخلع والخادم وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد، فحمل إليه واستأذنه فى الرجوع إلى مصر فحمل مكرماً أو كما قال.

ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق معلقاً على هذه القصة:

- أفتى الليث بن سعد هارون الرشيد فى رد طلاقه مراعياً فى ذلك الناحية الروحية من قبل أن يراعى ظواهر الأحكام.

أما القصة الثانية فقد رواها يحيى بن عبدالله بن بكير قال: سمعت الليث بن سعد يقول:

كنت أسمع بذكر أبى حنيفة وأتمنى أن أراه، فكنت يوماً فى المسجد الحرام فرأيت حلقة عليها الناس مجتمعين، فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً من أهل خراسان أتى أبا حنيفة فقال إنى رجل من أهل خراسان كثير المال وأن لى ابنا ليس بالمحمود وليس له ولد غيره.. فذكر نحوه سوءاً وزاد.

فقال الليث: فوالله ما أعجبى قوله بأكثر مما أعجبى سرعة جوابه.

والقصة المشار إليها أن الرجل قال: يا أبا حنيفة، قصدتك أسألك عن أمر قد أهمنى وأعجزنى، قال: ما هو؟

قال: لى ولد وليس لى غيره.. فإن زوجته طلق، وإن سريته أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟

فقال له للوقت:

- اشتر الجارية التى يرضاها هو لنفسك ثم زوجها منه.. فإن طلق رجعت مملوكتك إليك، وإن أعتق أعتق مالا يملك.

والمتتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيرا مما يتعلق بحسن السلوك وكمال الخلق إلى جانب ما يتعلق بأحكام الحدود والمعاملات.

وفى بغداد جرى حديث بين الإمام الليث وهارون الرشيد.. فيه حكمة، وفيه سداد الرأى ما فيه روى ابن حجر عن الليث بن سعد قال:

- لما قدمت على هارون الرشيد قال لى.

- يا ليث ما صلاح بلدكم؟

قلت: يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين.

قال: صدقت يا أبا الحارث.

ويقول الدكتور أحمد عمر هاشم:

استفاد الليث من رحلاته صغيراً، واستفاد من رحلاته كبيراً، وكانت حياته كلها استفادة وإفادة.

يقول أبو نعيم فى الحلية.

- أدرك الليث نيفا وخمسين رجلاً من التابعين.

ويقول ابن حجر عمن تلقى عنهم الليث:

سمع ببلده من يزيد بن أبى حبيب وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يعقوب، وعبيد الله بن أبى جعفر.

وبالحجاز من عطاء بن أبى رباح، ونافع مولى ابن عمر، وهشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وأبى الزبير محمد بن مسلم المكى، وأيوب بن موسى

الأموى، وعبدالله بن عبيد الله ابن أبى مليكه، وعمرو بن شعيب، وعمرو بن دينار، وقتادة وسمع فى رحلته إلى العراق، وهو كبير بن هشيم وهو أصغر منه.

ويقو أيضاً:

وسمع من أبى الزبير، وحديثه عنه من أصح الحديث، فإنه لم يسمع منه شيئاً دلس فيه.. ويستفيض صاحب كتاب الرحمة الغيثية فى ذكر من سمع منهم الليث.

كان الليث بن سعد بجانب علمه وفقهه.. رقيق القلب.. عطوفاً.. محباً للخير.. فأحبه الناس حباً جماً، ومما يروى عنه أن رجلاً باع داره بأربعة آلاف درهم.. واشتراها الليث بن سعد، وعندما ذهب رجل من قِبله لأخذ مفاتيح الدار وجد بها الأطفال يبكون فقد حرموا الدار التى تأويهم ورجع ليخبر الليث بما رأى من مشهد الأطفال، وكيف رجوه أن ينتظر عليهم بعض الوقت حتى يجدوا مأوى لهم.

فبكى الليث وترك لهم المنزل، وأرسل معونة لهم.

ويروى أن الإمام الشافعى وقف على قبره وقال:

لله درك من إمام.. حزت أربع خصال لم يحزهن عالم:

- العلم.
- والعمل.
- والزهد.
- والكرم.

وقال عبدالله بن صالح كاتبه:

صحبت الليث بن سعد عشرين سنة لا يتغذى ولا يتعشى إلا مع الناس، وكان لا يأكل إلا لحما ويقول: إنه يزيد فى العقل.. إلى أن مات.

وخرج الليث راكباً، فقُوِّمَتْ ثيابه ودابته وخاتمه وما عليه بثمانية عشر ألف درهم إلى عشرين ألفا، وكان يتصدق كل يوم على ثلاثمائة مسكين.

ويروى عنه أنه عندما زار مدينة رسول الله ﷺ لزيارة قبر الرسول بعد الحج . . أهداه الإمام مالك طبقاً من تمر، فما كان من الليث بن سعد أن وضع فى الطبق إلى الإمام مالك هدية بها ألف دينار.

ويروى عنه أيضاً الرواه أن امرأة جاءت إليه بإناء صغير تطلب منه أن يملأه عسلاً، فأرسل لها زقاً مملوءاً عسلاً، وعندما قالوا له إنها لم تطلب سوى أن تملأ لها ما تحمله من إناء صغير .

كان رد الإمام :

- إنها طلبت على قَدْرِها ودفعنا لها عن قدرنا.

ويقول رواة سيرته.

أن غلَّة ضياعه وأملاكه كانت فى كل سنة ثمانين ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة قط . . بمعنى أنه كان ينفق ويتصدق بدخله هذا على المحتاجين.

كما يقولون أنه عندما مرض لهيقه وكان فقيها وقاضى مصر، زاره الليث بن سعد وعلم أنه مدين بألف دينار، وأنه يخشى هذا الدين، فسدده عنه الليث بن سعد.

شخصية عظيمة فى علمها . . عظيمة فى تواضعها . . عظيمة فى سخائها، عظيمة فى حب الخير . . ضيعه تلاميذه كما قال الإمام الشافعى لأنهم لم يدونوا فقهه . . ولم يدونوا هذا العلم الغزير الذى كان يتمتع به، ومن هنا فنحن لم نعرف عن هذا الفقيه إلا أقل القليل بعكس باقى الأئمة التى حفظها التاريخ لأن تلاميذهم حرصوا على أن يسجلوا ما سمعوه من أساتذتهم العظام ، فظل هذا الفقه نور هداية للناس فى عصورهم إلى اليوم وإلى الغد، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . ولكن الذى حفظته ذاكرة التاريخ أن معاصريه تحدثوا على أنه كان عالماً عظيماً . . وفقيهاً مجتهداً . . ورجل بر وخير، بجانب أنه محدثا، ملما بالأحاديث النبوية الشريفة.

وقال شعيب بن الليث :

قيل لأبى: إنا نسمع منك الحديث ليس فى كتبك.

قال:

- لو كتبت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعه هذا المركب.

- وقد أفضى الدارسون الخلاف فى بعض المسائل الفقهية بينه وبين الإمام مالك، وكانت لهما رسائل فى ذلك؛ وكل ذلك يدل على أن الإمام الليث كان قامة عالية فى الفقه، وكانت له أراؤه التى تتسم بالعمق والرؤية السليمة المستمدة من الكتاب والسنة.

وهو كما يقول عنه الشيخ مصطفى عبدالرازق:

وهذا الذى نهض به الليث من توجيه الحركة الفقهية إلى الناحية الخلقية والروحية، كان من حقه أن يجعل الليث معدوداً من أئمة الصوفية الذين نهضوا بالتصوف نهضته الأولى.. ونهضة التصوف الأولى كانت أخلاقية.

ولقد رحل الإمام الليث بن سعد عن دنيانا فى ليلة الجمعة منتصف شهر رمضان فى سنة ١٧٥هـ وقد شيعه إلى مثواه الأخير خلق، كثير وكان الناس يعزون بعضهم بعضا فيه.

ويروى الرواة أنه عندما دفن سمع الناس قائلاً يقول:

قد مضى الليث فلا ليث لكم

ومضى العِلْم جميعـــاً وقُبر